الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى ونشر أى فكر وترويج كل مذهب - قاسم أمين

القاهرة

الثلاثاء ٣ من فبراير ٢٠٠٩ م - ٧ من صفر ١٤٣٠ هـ - ٢٦ من طوبة ١٧٢٥ ق
السنة التاسعة - العدد ٤٥٨
TUESDAY 3 Feb. 2009

بصمته الفنية نقلت المهمشين إلى قاعات العرض

حامد ندا... السيريالى الشعبى

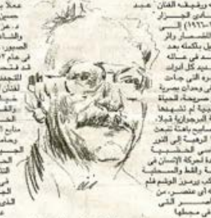

من الغريب حقا أن يقفز اسم الفنان حامد ندا فوق الأعمدة الصحفية كل فترة وجيزة، ليس في صفحات التحليل والنقد ورصد رموز الفن التشكيلي في مصر والعالم العربي، لكن من باب الحوادث والأخبار المثيرة، مرة بسبب تزييف أعماله، وأخرى بسبب سرقة أيضا أعماله، أو قبل ذلك عندما اختطفه الموت في حادث عبثي، دراماتيكي، يتشابه مع العالم الذي كان يبشر فيه في لوحاته. فعلى الرغم من أن حامد ندا صاحب اتجاه، وتيار فني أحدث انقلابا في المفاهيم الفنية، وطرح بذلك رؤى جمالية غير مسبوقة، وأثر في أجيال بعده، إلا أن أحدا لم يستطع أن يصل إلى تلك البصمة المتفردة التي أعلنت بهموم وشجون المهمشين والمنسيين إلى أكبر قاعات العرض الفنية.

كان حامد ندا الفنان والإنسان قد تعرض لحادث عبثي، في ليلة اختفى فيها البدر والكهرباء عن مصر، ففي اللحظة الوحيدة في تاريخه التي تخلى فيها السد العالي عن سكان وادي النيل بالكامل، في ليلة من ليالي صيف (٢٦ من شهر مايو) عام ١٩٩٠، تعطلت التربينات، وفي الوقت الذي كانت الإضاءة الخافتة في مرسم الفنان حامد ندا بوكالة الغوري تكفيه ليضع ألوانه السحرية التي اختلطت بعرق تلك السيدة زينب مسقط رأسه، التي حاول أن يخلص لهم حتى آخر نفس، انسحبت الكهرباء بدون استئذان، ليكتسي المكان باللون الأسود، حيرة ندا دفعته إلى أن يتجه بنظره إلى النافذة الأرابيسكية التي تميز مراسم فناني وكالة الغوري، وبعد أن تأكد ندا من أن الكهرباء تركت أيضا مئذنة جامع الأزهر والمشهد الحسيني، قرر حامد ندا ترك مرسمه بالوكالة، وتحرك في عتمة المكان الذي حفظ أركانه عن ظهر قلب، لكن القدر كان له كلمة أخرى قبل أن يضع لمسته الأخيرة على اللوحة التي كانت قد قاربت على النضج، فقد تعثرت قدمه على درج البيت العتيق، الذي طالما أمه في شوق، فيسقط غارقا في دمائه، وكأنه أراد أن يرسم لوحة فراقه، لكن باللون الأحمر.

عبثية القدر

على الرغم من أنها قد تكون المرة الوحيدة التي رفع فيها السد العالي يده وتركنا للظلام، وفي الوقت الذي انسحب النور فيه من جسد الوادي، فقدنا فنانا من طراز فريد، فمن لا يعرف ندا كان إنسان يمشي كالطيف الذي جسده كثيرا في لوحاته، يرتفع باستمرار عن الأرض لكنه يحب الحب (بفتح الحاء)، تربطه بالأرض جذور، ووشائج نافرة، في عناق دائم مع الأيام والشهور، عاشقا للحياة، متساميا، مترفعا عن الصراعات، فيما كشفت لوحاته عن عالم من المهمشين والمقهورين، ليرتفع بهمومهم إلى صدارة جدران الطبقة المخملية.

ندا أحد فرسان "جماعة الفن المعاصر" سبق الجميع بجسارة وجرأة مشهودة إلى مناطق محرمة في الميثولوجيا الشعبية للمجتمع المصري بل والأكثر من ذلك أنه دعا زميله ورفيقه الفنان "عبد الهادي الجزار" (١٩٢٥-١٩٦٦) إلى نفس المضمار وأثر في جيل بأكمله بعد أن وجد في عالمه الجديد كل أدوات تعبيره التي جاءت مثله في وحدات بصرية ورموز صريحة، للحياة الشعبية لم تشهدها الطبقة البرجوازية قبلا، من مصابيح باهتة تنبعث منها الرغبة إلى النور والكراسي الخشبية الراصدة لحركة الإنسان في اللوحة والقط والسحلية والعناكب، ورموز الوشم فلم يفوته أي عنصر، من العناصر التي تشكل في مجملها نسيج الحياة الشعبية التي تحاصر الإنسان في الأحياء الفقيرة بجمودها وبرودتها وألغازها.

مقهى المجاذيب

حارة الميضة خلف مقام السيدة زينب كانت مقصد ندا، والجزار، ويوسف كامل كل ليلة، للقاء في مقهى المجاذيب، حيث اختلط الفنانون بالمجاذيب والدراويش، وكثيرا ما قصوا عليهم حكايات خرافية وميتافيزيقية، ذلك هو المنجم الذي استقى منه ندا أبطال لوحاته، على نحو فريد غريب على الموضوعات التي كان يتناولها أقرانه.

وفي زمن شهد تجليات علاقة مشبعة لا يحكمها المادة والدروس الخصوصية، لم يكتف الأستاذ بالتعليم فقط بل قدم الأستاذ حسين يوسف أمين (١٩٠٤-١٩٨٤)، المربي ومدرس الرسم بمدرسة الحلمية الثانوية، إلى تلاميذه الخبرة الإنسانية وعلامات الطريق، وفتح أمامهم نوافذ المعرفة، حتى بعد التحاقهم بكلية الفنون الجميلة.

جاءت بداية ندا في الكلية الملكية للفنون الجميلة، مع رسم الجسد العاري، على سبيل التجريب، كما أتاح انضمام ندا إلى الجمعية الأدبية المصرية التي كانت تصدر مجلة الثقافة، أن يرسم الأعمال الأدبية لرموز التنوير في العصر الحديث، وهيأ العمل في المجلة الثقافية مناخا مثاليا لفنان خياله ارتبط بالشارع والحارة، منحازا إلى البسطاء، فقد جاءت هذه الرسوم التي تجاوزت ٢٠٠ عملا بجوار كتابات طه حسين، سهير القلماوي، د. عز الدين إسماعيل، والشاعر صلاح عبد الصبور، حتى أغلقت المجلة في عام ١٩٥٢، لكنها كانت قد فتحت بوابة من الرؤى التجديدية، وأتاحت خيالا لفنان لا ينقصه لكنه خيال يتعلق بالفكر، والقيم الإنسانية الخالدة التي غذت منابع الإبداع لديه.

وحامد ندا ينتمي إلى الجيل الثاني في الحركة الفنية التشكيلية الذي درس في كلية الفنون الجميلة وهو الجيل الذي أخذ على عاتقه مع رفاقه عبء تمصير الفن القادم من أوروبا تلك المسيرة التي بدأها الجيل الأول بقيادة المثال "محمود مختار" والمصورين "يوسف كامل" و"راغب عياد".

أحلام اليقظة

اتكأ الفنان "حامد ندا" على حبه إلى البيئة الفقيرة من خلال تأملات ورؤى ذاتية تؤمن بالكامن المختبئ من خيال هؤلاء البسطاء الذين وقعوا فريسة الجهل والفقر والمرض فاستكانوا، وإن جاءت ممارساته تحمل نقدا لاذعا لكل السلبيات التي تعتري أفراد المجتمع الفقير المستغرقين في أحلام اليقظة المعتمدين على الخرافة في حل مشاكلهم بشكل اتكالي فلم تكن قسوته إلا دليل حب ودافع تسليط الضوء، وكشف المستور كطبيب يستخدم المجهر والمشرط ويلجأ إلى البتر أحيانا بهدف علاج الداء أو استئصاله إن اقتضى الأمر.

استطاع "ندا" تغيير مفاهيم جمالية تقليدية كانت سائدة وراسخة، اعتمادا على ثقافة موسوعية، اكتسبها بفضل توجيه المعلم حسين يوسف أمين، الذي التف حوله الفنانون الشباب، أبناء منطقة السيدة زينب وضواحيها، وكانت مفاهيمه الفلسفية العميقة كفيلة بأن تؤثر في جيل بالكامل، وبلغ حامد ندا إلى قراءة كافكا، بودلير، بايرون، فيما كان شغف ندا الفلسفة سببا في البحث عن فرويد، أدلر، هيجل، شوبنهاور، نيتشه، وانجلز، وكعادة الطبقة الوسطى في هذه الفترة، استمع ندا إلى تشايكوفسكي، بيتهوفن، كورساكوف، واسترافنسكي.

الخميرة الخيالية

كان لقاء الطفل "حامد ندا" ابن حي القلعة القديم أحد أعرق أحياء القاهرة، بالحياة لقاء مثيرا للغاية فقد كان يوميا ينسل إلى مسامعه أغرب الحواديت والأقاصيص الخيالية من نسوة كن يأتين لترابيهن ليحكين ويقصصن بتسلية والتذ بأغرب الحواديت مثل حمام السعف والديك والحصين فرحات والديك الأدوح والكنز الوهمي، وتقول الكاتبة مثلة علي في كتابها عن حامد ندا إصدار هيئة الاستعلامات، شكلت هذه الحواديت الخيالية الخميرة الأولى لخياله في رحلة استكشافه الطويلة سابحا وراء المجهول المثير والغامض ففي رحلة الذهاب إلى المدرسة كان عليه اختراق أزقة وحواري الحي القديم مارا على مقاهي العاطلين ومجالس الدجالين والمشعوذين أمام المساجد بعقودهم الطويلة وخرزها الملفوف حول أعناقهم وكأنهم يحملون قدرهم المكتوب، أناس غرباء لهم أقدام متشققة حافية وأجساد مهملة ملقاة في تكاسل على كراسي المقاهي المتهالكة ويدخل بيوت الحي العتيق مبناه على حوائط متشققة تسكنها السحالي والعناكب والبشر معا في وئام عجيب وعلى الجدران الرطبة رسمت رموزا لجلب الحظ ودفع الحسد وكثيرا ما اصطدمت القدم الصغيرة بزير أو قبقاب أو قطة أو إنسان مكوم أرضا وفي المساء، وعلى ضوء مصابيح النور القديم الباهت الضوء، كانت تراوده أشباح القصص والحواديت ليلجأ مسرعا إلى منزله المملوكي الطراز فيستمع في أرجائه أنغام "فنان الشعب" سيد درويش وسلامة حجازي ومنيرة المهدية.

رسالة الفن

أهم ما يميز إبداع حامد ندا هو حالة الصدق في تناول الموضوع الشعبي على نحو جديد وجريء، وعن وعي برسالة الفن في إيقاظ الحواس، للدرجة التي تجعله على رأس تيار ما يسمى بالسريالية الشعبية، بالإضافة إلى كونه يرسم بطريقة الفنان الشعبي الذي يلون الجدران، مع الفارق في الوضوح، احتلت المرأة في لوحاته مكان الصدارة على نحو غير مسبوق، ففي الوقت الذي كشف فيه عن مفاتنها، متأثرا بنظرة فرويد، إلا أنها المعالجة تبحث عن قيم جمالية خالصة، وتضمر مضمونا ملغوما، لا يعكس بعدا حسيا.

فيما ظهر اللون يؤدي وظيفة الصمت الاستعراضية، بل على طريقة رسوم مقابر بني حسن، المصري القديم، (١٩٠٠ قبل الميلاد)، لون مقتصد شفاف وكأنه شارف على الانتهاء، صاحبه يعرف القيمة الحقيقية للمحتوى والشحنة العاطفية التي تمنحها شخوصه ورموزه وأعماله المطلقة، رغم غرابتها.

■ رسم القدر لوحة رحيله
بسيريالية عبثية تليق بفنه
■ سبق الجميع بجسارة وجرأة
مشهودة إلى مناطق محرمة فى
الميثولوجيا الشعبية للمجتمع المصرى

❖❖ **سيد هويدى**